مرثية ماريينباد*

جوته بين كارلسباد وفايمار - 5 أيلول 1823

في الخامس من أيلول، عام 1823 كانت تسير عربة سفر ببطء على الطريق الزراعي من كارلسباد الى ايجر، والصباح يشير رعدة برودة خريفية، والريح العاتية تجوس في الحقول الحصيدة، ولكن السماء تنتصب زرقاء فوق المنظر الطبيعي الفسيح الأرجاء، وكان يجلس في الحنطور، ثلاثة رجال، مستشار الأرشيدوق زاكسن - فايمار وأمين سره، فوق جوته، كما تدوّن اسمه لائحة الإمارة الناخبة في كارلسباد من باب التمجيد، وكلا الصديقين المؤتمنين، شتادلمن، الشاعر الشيخ، وجون، أمين السر، الذي خطّت يده كل أعمال جوته في القرن التاسع عشر تقريباً، أول مرة، ولا ينبس أحد من كليهما ببنت شفة، لأن شفة الرجل الطاعن في السن لم تتحرك - منذ مغادرة كارلسباد، حيث تزاحمت الصبايا والفتيات على الراحلين بالتحية والقبلة، فهو يقعد في العربة بغير حراك، الا أن النظرة المتأملة، التي كانت حبيسة ذاتها، تشير الى حركة داخلية.

وفي أول محطة لتبديل الخيل يترجل هو، وينظر كلا الرفيقين إليه على وجه السرعة، وهو يكتب بريشة الرصاص كلمات على ورقة كيفما اتفق، ويتكرر الشيء ذاته في كل الطريق حتى فايمار، في الرحيل والاستراحة. ففي تسفوتاو، لم يكد يصل، وفي قصر هارتنبرج في اليوم التالي، وفي إيجر، ثم في بوسنك، وفي كل مكان، يكون أول ما يفعله أن يدون ملاحظة في كتابة مستعجلة عن تلك الفصول بأشعة الشمس في العربة التي كانت تسير. وكتب اليوميات لا يفصح إلا إفصاحا مقتضبا: "الصياغة في القصيدة" (6 أيلول)، "وفي يوم الأحد استئناف الصياغة في القصيدة" (7 أيلول)، "تصفح القصيدة مرارا في الطريق" (12 أيلول). وفي فايمار، حيث الهدف، اكتمل العمل، وهو عمل ليس بأقل من "مرثية ماريينباد" القصيدة الأهم على الإطلاق، والأكثر حميمية بالنسبة إليه من الوجهة الشخصية، والتي تعد، من أجل تلك أيضا، أحب قصائده إليه في شيخوخته، إنه وداعه البطولي، وبدايته الجديدة البطولية. لقد أطلق جوته ذات مرة أثناء حوار، على هذه القصيدة، اسم "مذكرات أحوال داخلية" وقد لا توجد صفحة في مذكرات حياته بمثابة هذه الصراحة، وهذا الوضوح في الأصل والنشوء، بين أيدينا مثل هذه الوثيقة التي تتساءل بأسلوب تراجيدي، وتشكو بأسلوب تراجيدي حول أكثر مشاعره صميمية. وما من سنيك غنائي في سنوات صباه نشأ بهذا الأسلوب المباشر من حيث الباعث والحدث، وما من عمل نستطيع أن نراه يتكون إلى هذا الحد، خطا فخطا، وشطرة فشطرة، وساعة فساعة، مثل هذه "الأنشودة الرائعة التي تجهز لنا وتحضرنا"، هذه القصيدة الأعمق على الإطلاق، والأكثر نضجا. القصيدة الناضج أخيرا، الذي يلتهب التهابا خريفيا حقا، في الرابعة والسبعين من عمره. ولما كانت نتاج "حالة عاطفية جامحة إلى أقصى الحدود"، كما سماها أمام إيكرمن، فهي تجمع أيضا في الوقت نفسه بين أسمى أساليب ترويض الشكل، وإن من الواضح الجلي، ومن الأمور الحافلة بالأسرار في الوقت ذاته، أنها تتحول إلى لحظة الحياة الأكثر نارية على الإطلاق من حيث الصياغة. وحتى في هذا اليوم، وبعد أكثر من مائة عام، لم يذبل شيء، ولم يبهت وميضه في هذه الصفحة الرائعة من حياته المكثرة ذات التشعب الواسع. ويظل هذا اليوم، الخامس من أيلول، بعد قرون من الزمان، خالدا في ذاكرة الجيل الألماني القادم وفي شعوره. وفوق هذه الصفحة، وهذه القصيدة، وهذا الإنسان، وهذه الساعة، يتألق نجم الولادة الجديدة النادر. ففي شباط من عام 1822 كان على جوته أن يصمد لمرض ثقيل معتل إلى أقصى الحدود، فثمة رعدة حمى عنيفة تزلزل الجسد، وفي بعض الساعات يكون الوعي قد غاب، وهو نفسه لا يبدو أقل غيبوبة. أما الأطباء الذين لا يتبينون عرضا واضحا، ولا يحسون إلا بالخطر، فحائرون. ولكن فجأة تتوارى العلة، كما جاءت، ففي حزيران أن يذهب جوته إلى ماريينباد، متبدلا تبدلا كاملا، إذ كان الأمر يكاد يبدو وكأن تلك النوبة لم تكن إلا عرضا دالا على تجدد شباب من الداخل، وعلى بلوغ جديد "neue pubertät"، وذلك أن الرجل المنغلق، المتصلب، المتحذلق، الذي كان الشعري فيه يتحول بأكمله إلى علم أو تعلم بحكم تكون القشرة القاسية التي تغشيه، ما عاد منذ عقود من الزمان يستجيب إلا للشعور استجابة كاملة، مرة أخرى. وها هي ذي الموسيقى "تفتح مطاويه ومغاليقه". كما يقول. فما عاد يستطيع أن يسمع عزف البيانو، ولاسيما بيد امرأة فاتنة الحسن، مثل شيمانوفسكا، من دون أن تغرورق الدموع في عينيه، فهو يقصد إلى الشباب بدافع من أعمق الدوافع، وتنتاب الرفاق الدهشة وهم يرون رفيقهم، ابن الرابعة والسبعين، يظل حتى منتصف الليل متحمسا للحديث مع النساء، ويرون كيف يأتي، منذ سنين، إلى الرقص مرة أخرى، حيث يأتي بين يديه، كما يروي مزهوا "عند تبديل السيدات، معظم البنات ذوات الحسن". لقد انصهر كيانه الجامد في هذا الصيف انصهارا سحريا، وانفتح، وكانت نفسه، على ما كانت عليه الآن، تلتمع صحية للسحر القديم، السحر الأبدي. وتكشف اليوميات، بأسلوب غادر، عن "أحلام متسامحة"، ويعود فرتر القديم فيه إلى اليقظة، فالقرب من النساء يثير حماسته إلى قصائد وجيزة، ومعابثات ومداعبات كتلك التي كان يمارسها قبل نصف قرن مع ليلي شونيمن. وما زال الاختيار يميل، مضطربا، صوب الأنثوي، فهو يختار في البداية ولين الجميلة ثم أولريكه فون ليفتسوف، ابنة التاسعة عشرة، التي يوجه إليها كل وجدانه التماثل للشفاء. وكان قد أحب أمها قبل خمسة عشر عاما، وكان يمجدها، وما زال قبل عام يداعب "البنيّة الصغيرة" مجرد مداعبة أبوية. ولكن الآن يتنامى الميل فجأة إلى الهوى الجامح، وإذا هو الآن مرض آخر يستحوذ على كيانه كله ويهزه في عالم الشعور البركاني هزة أعمق مما كانت تفعل منذ سنين تجربة من التجارب. وتنتاب ابن الرابعة والسبعين الحماسة كلما عاد فتى، فلا يكاد يسمع الصوت الضاحك في النزهة حتى يدع العمل، ويسرع من دون قبعة ولا عصا إلى بنتية مرحة مستبشرة. غير أنه يخطب أيضا شأن الفتى، وشأن الرجل، إنها السرحية الشوهاء، تنفتح ساخرة هجائية إلى حد ما، مختلطة بالمأساوي، وبعد أن تشاور مع الطبيب سرا، يفضي جوته إلى أكبر رفاقه سنا، وهو الأرشيدوق، راجيا منه أن يتكرم عليه لدى السيدة ليفتسوف بخطبة بنتها أولريكه، ويبادر الأرشيدوق، وهو يذكر بعض لياليه مع النساء، تلك الليالي الجنونية، التي شاركه معه قبل خمسين عاما، وربما كان ذلك بهدوء، وهو يبتسم في سرور بالأذى، ضاحكا من الرجل الذي تبجله ألمانيا، وأوروبا على أنه أحكم الحكماء، والفكر الأكثر نضجا وصفاء في القرن - إلى تقلد النجمة والأوسمة بالأسلوب الاحتفالي، ويذهب ليخطب، من أجل ابن الرابعة والسبعين، يد الفتاة ابنة التاسعة عشرة من أمها. ولا يعرف شيء دقيق عن الجواب. وتبدو متربصة للجنوح إلى المماطلة والتأجيل. وهكذا حال جوته، خاطب من غير يقين، يسعده مجرد القبلة العابرة، والكلمات ذات القصد الحسن، بينما تضطرم في داخله على نحو يزداد جموحا على نحو مطرد، الرغبة في أن يستحوذ مرة أخرى على قامة على هذا القدر من الرقة واللطف، ويصارع النافد الصبر فيه أبدا من أجل الحصول على الحظوة الأسمى في لحظته الراهنة، وفي إخلاص ووفاء يتبع الحبيبة من ماريينباد إلى كارلسباد، وهنا أيضا لا يجد سوى اللايقين بالنسبة لنارية رغبته، ومع شمس الصيف الآفلة يزداد عذابه، وأخيرا يقترب الوداع فلا يوعد بشيء، ولا يبشر إلا بالقليل، وحين تدرج العربة الآن يشعر صاحب الحدس الكبير أن شيئا هائلا في حياته ينتهي الآن، ولكن الرفيق الخالد لأعمق ألوان الألم هو في الساعة المدلهمة، العزاء القديم. ويتعهد الشيخ الآن متفكرا، في العربة التي تسير، وقد أثار في نفسه الأشياء ما تنطوي عليه أسئلته الباطنية من اللايقين، وكانت أولريكه قد هرعت إليه حتى في الصباح الباكر، مع أختها، عند "الوداع الصاخب، وقبلة الفم الفتي، تحبيب، ولكن أترى هذه القبلة كانت رقيقة، بنوية؟ وهل ستستطيع أن تحبه، ولن تنساه؟ وابنه، وبنت حميه، اللذان ينتظران الإرث متربصين، أتراهما يصبران على زواج له؟ والعالم، ألن يتهكم عليه؟ ألن يكون ابتعد عنها وولى أدباره في العالم التالي لأنه طعن في السن؟ وإذا رآها ثانيا، أيحق له أن يأمل من هذا اللقاء؟ تسير عجلاتها يرى المنظر الطبيعي في بوهيميا في سكونه الصباحي، وقد وضع السكينة الربانية في مقابل اضطرابه وقلقه، لكن هذا العالم هو بالقياس إليه مفرط في الخلو من الروح. وفي مثل هذه الثلثية المشحونة بالعاطفة الجامحة لا يقدر على إدراك كل شيء إلا في ترابطه بالحبيبة، وتتكشف الذكرى على نحو سحري للتحول إلى تجدد باعث للضياء والإشراق.

ولا تكاد صورة أولريكه تستحضر حتى تتشكل، وقد بالت في صياغة محسوسة، وهو يصف كيف استقبلته وأسعدته "على مراحل"، وكيف بادرت بعد القبلة الأخيرة، إلى طبع القبلة "بعد الأخيرة" على شفتيه، ويصف الآن بالشعر إسعاد كلٍّ منهما للآخر، بأكثر الصور تساميا، من حيث كونه الأستاذ الشيخ في شطرة من أكثر الأبيات نقاء حول الشعور بالتفاني والحب، التي أبدعتها اللغة الألمانية أو أية لغة أخرى، ولكن في الشعور اللاحق للتعلق بهذا الظرف البالغ الإسعاد، على وجه الخصوص، يعاني الشاعر المهجور من فصل الحاضر عنه، والآن ينبثق ألم يكاد يمزق الحالة النفسية المتصلة بالقصيدة الرائعة تمزيقا، إنها صراحة في الإحساس لا يحقق مثلها إلا التبدل الثقافي العضوي في تجربة مباشرة مرة واحدة خلال السنين، ولم يسبق قط لذلك المتحفظ في العادة أن صدرت عنه شطرة مماثلة. وذلك أن الفتى الذي كان يعرف كيف يواري نفسه، والرجل الذي كان يعرف كيف يتحفظ، والذي كان، على الدوام تقريبا، لا يكشف عن أعمق أسراره إلا في صور منعكسة أو أخيلة، أو رموز، يبوح هنا وهو شيخ أول مرة، بشعوره بحرية بواحا رائعا. وربما لم يكن الإنسان المرهف الحس، والشاعر الغنائي الكبير فيه أكثر حياة مما كان في هذه الصفحة التي لا تنسى، في لحظة التحول هذه التي يذكرها التاريخ في حياته. وقد أحس جوته نفسه أيضا بهذه القصيدة إحساسه بشيء حافل بالأسرار إلى حد بالغ، وكأنه نعمة نادرة من نعم القدر، فلم يكد يعود إلى فايمار حتى كان أول ما فعل، حتى قبل أن يلتفت إلى أي عمل آخر أو رموز منزلية، أنه خطّ بيده نسخة فنية من المرثية، وبعد ثلاثة أيام يدون القصيدة على ورق يتم اختياره لذلك خصيصا، بحروف كبيرة احتفالية، فعل راهب في صومعته، ويخفيها حتى عن أقرب رفاقه في المنزل، وحتى أكثرهم ظفرا بثقته، على أنها سر، وحتى عمل التجلد يتجزه هو لكيلا ينتشر الخبر عن طريق الثرثرة، بطريق التهور والتسرع، ويثبت المخطوط بخيط حريري في غلاف من جلد الماعز التركي الأحمر ليوعز بعد ذلك بتبديله بغلاف من قماش الكتان أزرق رائع، ما زال يرى حتى اليوم في محفوظات جوته وشيلر). والأيام باعثة للأسى واعتلال المزاج، فلم تلق خطة الزواج في المنزل إلا السخرية، بل انتهت بابنه إلى حالات انفجار للكراهية المكشوفة، ولا يستطيع أن يقيم مع المخلوق الحبيب إلا في كلامه الشاعري، ولا يتجدد الشعور بأيام ماريينباد المشرقة إلا حين تأتي الجميلة بولين، من آل شيمانوفسكا، لزيارته مرة أخرى، وتحمله على التبسط في الحديث، وفي السابع والعشرين من تشرين الأول يدعو إيكرمن إلى الجسيه إليه أخيرا، وتتجلى الدالة من مجرد الاحتفالية التي يمهد بها للإنشاد، إذ تكشف هذه على منصة الكتابة. وبعد ذلك فحسب يطلب إلى إيكرمن أن يتخذ مكانه أمام الشمعدانين، وأن يقرأ المرثية، وشيئا فشيئا يسمعها الآخرون أيضا، ولكن أكثرهم ائتمانا فحسب، لأن جوته يصونها "كأنها أثر مقدس"، على حد تعبير إيكرمن. أما أنها تتمتع بأهمية خصوصية بالنسبة لحياته فذلك ما تكشف عنه الشهور التالية. وذلك أن حالة الارتياح والعافية الصاعدة الناجمة عن تجدد الشباب سرعان ما يعقبها انهيار. ويبدو قريبا من الموت مرة أخرى، ويجر نفسه من السرير إلى الكرسي ذي المسند، ومن الكرسي ذي المسند إلى السرير، من دون أن يجد الراحة، وابنة حميه على سفر، وابنه مترع بالكراهية له، وما من أحد يعتني بالمريض المهجور أو يشاوره، هنالك يأتي تسيلتر من برلين، مدعوا على ما يبدو من قبل الأصدقاء، وهو أليف قلبه المؤتمن إلى أقصى الحدود، ويتبين على الفور الحريق الداخلي، ويكتب قائلا وقد تولته الدهشة، "ماذا أجد؟ أجد امرءا يبدو كأنه يحب، كل الحب بكل ما ينطوي عليه من عذاب الشباب بجسدهم". ولكي يشفيه يتلو عليه المرة بعد المرة، على الدوام، قصيدته هو "بمشاركة من أعماق قلبه" ولا ينتاب جوته الكلل من سماعها، ويكتب الرجل الذي تماثل للشفاء بعد ذلك قائلا: "لقد كان من الأمور الخاصة المتميزة أنك أسمعتني من خلال عضو سمعك الحساس الرقيق مرارا ما هو محبب إليّ بدرجة ما، وهو الأمر الذي قد لا أعترف به أنا نفسي". ويكتب بعدها قائلا: "لا يجوز لي أن أدعها تخرج من يدي، ولكن ما دمنا نعيش معا فما كان لك بد أن تتلوها علي وتنشدها إلى أن تستطيع أن تحفظها عن ظهر قلب". وهكذا يأتي "الشفاء، كما يقول تسيلتر، من الحربة التي أصابته بالداء" وينقذ جوته نفسه. كما يجوز للمرء أن يقول هذا، بهذه القصيدة، وأخيرا تم التغلب على العذاب ويتم إلحاق الهزيمة بالأمل المأساوي الأخير، لحلم بحياة زوجية مع "البنيّة" المحبوبة وهو يعرف أنه لن يذهب بعد أبدا إلى ماريينباد أو إلى كارلسباد، ولن يعود أبدا إلى عالم اللهو الحافل بالبشر، عالم الذين لا هم لهم، ومنذ الآن فصاعدا ستكون حياته موقوفة للعمل وحده. أما البداية الجديدة للمصير فلقد زهد فيها الممتحن، وتدخل مكانها كلمة كبيرة أخرى في محيط حياته هي "التكميل" ("vollenden") ويجد يعود بنظره القهقرى إلى عمله الذي يمتد على مدى ستين عاما، فيراه مفرقا متناثرا [illegible]، إلا ما عاد في وسعه الآن أن ينشئ المزيد منه، أن يقوم بالجمع على الأقل، ويتم إبرام العقد من أجل "الأعمال الكاملة" ويتم الحصول على حق الحماية لحقوق المؤلف، ومرة أخرى يتوجه حبه الذي كان قد تاه تائها في حب فتاة في التاسعة عشرة، إلى أقدم رفيقين لشبابه، "فيلهلم مايستر" و"فاوست". ويقبل على العمل بهمة ونشاط، ويتم تجديد خطة القرن الماضي من الأوراق المصفرة. وقبل أن يبلغ الثمانين تكون "سنوات التجوال" قد اختتمت، وبجرأة بطولية يتقدم ابن الحادية والثمانين إلى "العمل الرئيسي" في حياته، إلى "فاوست" التي يستكملها بعد سبع سنوات من هذه الأيام المصيرية المأساوية، أيام المرثية ويوصد عليها الأبواب أمام العالم بالختم والسرية، بمثل الروح التقوي الخاشع الذي يفعل ذلك به في حالة المرثية. وبين هذين الجوين من أجواء الوجدان، بين الرغبة الأخيرة والزهد الأخير، بين الابتداء والاستكمال، يكمن هذا الخامس من أيلول، وداع كارلسباد، ووداع الحب الذي يشكل نقطة الذروة (الوسمت الرأس)، لحظة لا تنسى من لحظات الانعطاف الداخلي، متحولة إلى أبد من جراء الشكوى التي تزلزل النفس، ويحق لنا أن نعد هذا اليوم يوما يذكره التاريخ. ذلك لأن الأدب الألماني لم يشهد منذ ذلك الوقت ساعة أروع من ساعة فيض الشعور العام الأصيل في هذه القصيدة العظيمة.

---

* من كتاب ساعات القدر في تاريخ البشرية لـ شتيفان تسفايج الذي نقله إلى العربية محمد حديد، وسيصدر قريبا عن دار المدى بدمشق.

تأبين عبد الرحمن منيف في دمشق

"الكتابة لها أظافر... وقد تجرح أحيانا"

ابراهيم حاج عبدي/دمشق

أبّنت دمشق يوم الخميس الماضي الروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف وسط حشد من الجمهور تقاطر إلى قاعة مكتبة الأسد بدمشق التي امتلأت عن آخرها مما اضطر معه منظمو الحفل إلى وضع شاشة في القاعة المجاورة لنقل مجريات الحفل والتي امتلأت بدورها بجمهور جاء يستمع إلى الكلمات الأخيرة التي ستقال في كاتب وصفه فيصل دراج محقا بـ "الرومانسي النظيف" الذي أبى دائما المساومة على مبدأ أو التهاون في قضية عادلة.

تضمن حفل التأبين فيلما وثائقيا تناول جانبا من السيرة الذاتية والإبداعية لصاحب "مدن الملح" وسلط الضوء على أبرز المحطات في حياته الأدبية وتضمن فقرات من الحوارات التي أجريت معه في السنوات الأخيرة كما تضمن مقتطفات من شهادات قالها نقاد وكتاب كبار في تجربة منيف، وعزف الفنان نصير شمة على آلة العود بعضا من المقطوعات إضافة إلى مقتطفات من كتاباته تلاها الفنان السوري بسام كوسا (الذي جسد دورا في مسلسل مقتبس عن رواية منيف "الأشجار واغتيال مرزوق")، وغنت نعمى عمران مقاطع غنائية بين الفقرات المختلفة التي قدمها محمد علي الأتاسي وألقى الشاعر اللبناني طلال حيدر مقاطع شعرية تركت صدى موجعا لدى الحاضرين بعد أن ألقى كتاب ومفكرون عرب كلمات مؤثرة في أربعينية صاحب "أرض السواد".

بدأ الناشر والصحفي اللبناني طلال سلمان كلمته مخاطبا منيف "وها نحن نتراصف، هنا، مرة أخرى، لنتبارى في رثاء الغد" مضيفا "لقد بتنا محترفين، يا أبا عوف، جاهزة أوراقنا والأقلام، والكلمات مدمجة بينها فراغات متروكة لاسم الغادر الجديد ومهنته وآثاره الباقية. وها أنت تلتفت إلينا من عليائك هاتفا بصوتك ذي البحة الخشنة: ماذا أبقي لكم؟ لماذا لا تطلقون ما احتبس في صدوركم من وجع؟ لماذا لا تنسحبون فتحررون أبناءكم منكم؟ لماذا تنهكونهم بخيباتكم؟ لم لا تدعونهم يخوضون تجاربهم بعيدا عن محاولاتكم المجهضة بعيدا عن جبنكم بعيدا عن خوفكم من التغيير؟ لماذا لا ترفعون أنجازاتكم من الطريق قبل أن يلتهم الثلج المدن التي توهمتم أنكم تشيدون، فإذا هي مزيج من المقابر والمدافن والمنافي والشوارع التي يدوي فيها الفراغ؟!". وتضمنت كلمة سلمان مفردات مستوحاة من عناوين روايات منيف إذ أضاف "لقد ذهبت مدننا وبقي الملح أبا عوف. الملح في العيون. الملح على سن القلم، الملح يغلف السماء والغيم ويمنع المطر. الملح يغتال الأشجار ويغتال مرزوقك ومرزوق بيروت". وأبى الروائي اللبناني الياس خوري إلا أن يخاطب صاحب شرق المتوسط بوصفه حاضرا لا غائبا قائلا إن العلاقة بين الحضور والغياب كالعلاقة بين اسم المؤلف الذي يوضع على الكتاب وشخصيات هذا الكتاب. وتابع "عندما ذهبت إلى مدن الملح، وعدت إلينا بأطول رواية عربية رأينا آثار الرحلة على وجهك وعينيك ويديك. كنت تبحث عن علاقة الواقع الذي يتفوق في همجيته على الخيال، بالخيال الذي يحاول أن يجمع مزق الواقع والممنوع وتعلن الفضيحة، وعندما أغمضت عينيك دخلت إلى عوالم أبطالك كي تصير واحدا منهم، فتحت دفتي الكتاب، وذبت في متون الأسطر المتراصفة، جاعلا من موتك موقفا يوازي مواقفك في حياتك". وختم

العربي الذي يضع المعرفة في خدمة الإنسان، ولا ينحني للسلطة، ولا يسكت، ليس مهددا بأن يعيش في المنافي فقط، بل مهدد بالموت في المنفى، حيث لا حجر يسند إليه رأسه في بلاده. وطنه لغته، وأرض سواد كلامه، في انتظار أن يستعيد المواطن الوطن وتستعيد الحرية الأرض".

أما الناقد الفلسطيني فيصل دراج الذي تناول في أكثر من كتاب أدب منيف وخطابه الروائي ولاسيما في كتابه الأخير "الرواية وتأويل التاريخ" الذي يركز فيه على معنى المنفى بالنسبة لمنيف ونظرته للتاريخ الذي يرى فيه ذاكرة أخرى للإنسان فقد ذكر دراج سؤالا من جملة الأسئلة التي كان يطرحها على الروائي وهو: هل للكتابة من معنى في هذا الزمن؟ أجاب منيف: الكتابة النزيهة مثل قطرة الماء، تبدو لا شأن لها، غير أن في اجتهاد قطرة الماء المتتابعة ما يفتت الصخر بعد زمن. الكتابة لها أظافر، إنها "تخرمش"، وقد تجرح أحيانا. والأساسي هو مدى الإيمان الذي نمارس به الكتابة وعمق الإيمان الذي نضعه فيها".

الدكتور أسامة النقيب تحدث بدوره عن رحلة منيف في الأدب وذلك انطلاقا من اللحظة التي اتخذ فيها القرار الأهم في حياته في أن يصبح كاتبا فالمعروف أن منيف كتب الرواية في سن متأخرة لكنه قدم إنجازا يفوق كثيرا التجربة القصيرة نسبيا في هذا المجال، وكان بذلك كما يقول "يوسع دائرة نضاله ويخلق منصة حرة عن طريق الكلمة، وانتزع نفسه من مشاغل الحياة اليومية" وأضاف النقيب أن منيف بذلك "انتقل من السياسة إلى الأدب فأغنى كلاهما"، وكان "ابتعاده عن السياسة اقترابا منها وتوسيعا لرقعتها". إلا أن منيف في السنوات "الماضية كان المرض يعاوده بوتيرة أسرع، وشدة أكبر من سابقتها، ولكن عقله وإرادته بقيا على توهجهما، فما أن تنحسر نوبة المرض حتى يعاود الكتابة، وهو على يقين أنما يكتب بين نوبتين".

وختمت زوجة منيف سعاد قوادري حفل التأبين بإلقائها كلمة العائلة التي جاءت مؤثرة، وقالت أنه ما أراد حياة أخرى غير التي عاشها، واستذكرت مقاطع من مشوارهما معا، حيث كان منيف منفتحا على كل الفنون، راغبا في الإحاطة بها جميعا "إنه منذ بدايته السياسية كان مؤمنا بضرورة الانفتاح على جميع الفنون لعلاقتها الوثيقة بتكوين المرء، خاصة إذا كان مقتربا من السياسة، وظل مؤمنا بأن الفن والأدب لا يزالان قادرين على قول شيء، يختلف عن الضجة والصراخ والشعارات والندب والتفجع أيضا. وتذكر أن منيف قبل رحيله كان بالغ الرضا عما أنجزه، ولأقصى حد "لقد كان ممتلئ الرضا والقناعة بما اختاره في كل مراحل حياته، وقال أكثر من مرة لو خيرت لأبدأ من جديد لما غيرت شيئا مما حدث".

لم يكن منيف اسما عاديا عابرا في المشهد الثقافي العربي بصورة عامة بل كان مثالا لأديب مغامر وصادق عاش متنقلا من منفى إلى منفى باحثا عن وطن جميل في سطور الكلمات التي يخطها، ولم يكن ينحني لأي سلطة سوى سلطة المعرفة وآلف دائما بين القول والممارسة ففي أدبه وفي حياته لم يكن في قاموسه كلمة اسمها المساومة بل ظل على الدوام رجلا عصاميا وأديبا مقتدرا فرض احترامه وحضوره على كل من يقدس الحرف والكلمة.

قصائد

شعر: عبد الرحيم صالح الرحيم

• قلبي...
ربما
خلف سور الضباب
نجمة...
هي قلبي الذي يقرأ الخوف في
كلّ باب...

• طمأنينة...
في هدوء
جلس القط فوق الجدار
ناظراً بانبهار
صوب قرص القمر
دون أن يكترث
للنباح الشديد
من كلاب الجوار...

• تحليق...
عقار كعين الديك صرفا
شربتها
فصفق رأسي، ثم طار، وحلقا

• محاق...
ماله شجر البرتقال
مال تيها بأقماره الزاهيات!..
في غد
سيحل المحاق
حين ترنو إليها عيون
السلال...

• حكمة...
مرة...
وأنا غارق في خطايا الطريق
قرأت على باب بيت عتيق
حكمة.
فلقت نشوتي في الحياة
وأزالت
من زوايا فمي
ما تبقى بها من نثار الرحيق

• تلك الساعات...
ما أوحش تلك الساعات
لا ينتفخ البحر بآلاف
الأصوات
وهي تصيح:
أبداً لا زورق في اليم
أغطس حتى القاع، وثم
أبداً لا زورق في اليم...

• حياتي...
من أعلى التل
أبصرت حياتي
ذاهبة، آيبة
صرتها في يدها...
كانت تلتف بأذيال الدنيا،
وتدور
كحمار الناعور...